الباب الثاني
القصص والتكاليف

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

«موضوع التطبيق العملي للتكاليف الإلهية من خلال قصة آدم وزوجه في الجنة»

(افعل ولا تفعل)

لقد تناول الشيخ الشعراوي موضوع «تطبيق التكاليف الإلهية» من خلال تفسيره للمشهد الذي ورد في سورة البقرة من قصة آدم وزوجه في الجنة، والذي صوره قوله تعالى:

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[1]

وفي معالجة الشعراوي لهذا الموضوع سعى إلى تناول العناصر التالية؛ حتى يتمكن من إرساء قواعد الموضوع، الذي يجول في خاطره حول القصة:

---

[1] سورة البقرة، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(أ) سعى الشعراوي لإثبات أنَّ جنة آدم وزوجه ليست جنة الخلد، بل هي «جنة تجربة على مدى تطبيق التكليف الإلهي» " افعل ولا تفعل"

(ب) معالم التكليف الإلهي لآدم في الجنة، وموضوع تطبيق التكاليف الإلهية.

(ج) فقه صيغ التحريم في موضوع تطبيق التكاليف الإلهية.

(د) إغواء إبليس لآدم وزوجه لصرفهما عن تنفيذ التكليف الإلهي لهما.

(هـ) هبوط آدم وزوجه ليس عقابًا، إنما هو إيذان ببداية مهمتهما على الأرض.

(أ) جنة آدم وزوجه جنة تجربة على مدى تطبيق التكليف الإلهي:

لقد سعى الشعراوي في تناوله لهذا الموضوع إلى إثبات أنَّ جنة آدم وزوجه لم تكن جنة الخلد، بينما هي جنة اختبارٍ وامتحانٍ لآدم وزوجه على مدى تطبيق التكاليف الإلهية، من خلال تَعَرُّضِهُمَا لتجربة عملية في «جنة التجربة» كما أسماها، وذلك في إطار معالجته لأحد عناصر الموضوع الذي سعى إلى بنائه.

يقول الشعراوي: «أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض، ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله في تجربة عملية على المنهج، الذي سيتبعه الإنسان في الأرض، وعن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس»[1]

ويتجلى من كلامه السابق تنويهه إلى فائدة عرض القرآن لهذه القصة، والتي تتلخص في أنها تمثل أول نموذج للتكليف الإلهي بمنهج «افعل ولا تفعل» وما يتعرض له المكلف حين تنفيذه للتكاليف الإلهية من إغواء الشيطان وهوى النفس «وذلك لأنَّ الله – تعالى – جعل للشيطان شَرِكَة مع نفس الجبلة فيما هو من حظوظها»[2] فالمؤمن المكلف يعيش بمنهجٍ إلهي فيه صلاح دنياه وآخرته، ويتصدى طريقه عدو متربص به متواطئ مع هوى نفسه، الذي إن لم يعصمها بتعاليم خالقها حدثت لها الغَوَاية، التي تحول بينه وبين تنفيذ التكاليف الإلهية، التي أوصاه الله – تعالى – باتِّبَاعَهَا، فشأن إبليس تزيين الباطل حقًّا والحق باطلًا.

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

[2] التُسْتُري، تفسير التستري، ص٢٨، علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وقد عرض الله هذه القصة من باب التذكير بالتكليف الإلهي، الذي على المكَلّفْ أن يتبعه، وبالعدو الذي على بني آدم أن يحترزوا منه، وهذا ما أراد الشعراوي معالجته، وربطه بواقع المكلف في كل زمانٍ ومكانٍ يُتلى فيه القرآن، وذلك من منطلق أنَّ وظيفة القصص القرآني تتعدى كونها سردًا تاريخيًّا، إلى كونها للموعظة والعبرة، حتى تتحقق الهداية هدف القرآن الأسمى، وهذا ما أكده محمد إقبال فيما ذكره أنَّ «هدف القرآن من إيراد هذا القصص قلما يكون للعرض التاريخي، بل يكاد دائمًا يهدف إلى أن يجعل لها مغزًى عامًّا أو مضمونًا فلسفيًّا»[1]

ولقد خضعت القصة القرآنية في جميع موضوعاتها لمقتضى الأغراض الدينية، فالقصة القرآنية وسيلة من وسائل القرآن الكريم العديدة في التعبير عن موضوعاته الرئيسة وقضاياه الجليلة، وهي وسيلة من وسائل البيان القرآني الكريم.

---

[1] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، راجعه: عبد العزيز المراغي ومهدي علام، ص٩٦، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م.

فوعى شيخنا الشعراوي هذا الدور للقصة القرآنية، فمضى يوجه جمهوره إلى أهدافها من خلال عرضه لموضوع «تطبيق التكاليف الإلهية من خلال قصة آدم وزوجه في الجنة»

ومن نص حديث الشعراوي الذي يؤكد فيه على كون تلك الجنة «جنة تجربة» لآدم على مدى تطبيق التكاليف الإلهية" افعل ولا تفعل" وذلك من منطلق ألا يتسلم آدم مهمته في الوجود على أساس نظري، وإنما يتسلمها وقد تأصل في وجدانه صدى هذه التجربة، التي حوت تكليفًا بافعل ولا تفعل، وكذلك بنوه من بعده. يقول الشعراوي: «...إذن فالفترة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقًا عمليًا لمنهج العبودية، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري، بل خرج بمنهجٍ عملي تعرَّض فيه لافعل ولا تفعل، والحلال والحرام، وإغواء الشيطان والمعصية، ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى الله، وليعرف بنو آدم أنَّ الله لا يغلق بابه في وجه العاصي، وإنما يفتح له باب التوبة»[1]

ومن المنطلق السابق استحضر الشعراوي مناقشًا قول من قال: إنَّ جنة آدم وزوجه هي «جنة الخلد التي سيدخل فيها المؤمنون في

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

الآخرة»[1] وكذا قول من قال: «إنه لولا أنَّ آدم عصى لكنا نعيش في الجنة»[2] فأبطل الشعراوي هذه الآراء بأنَّ هذه الجنة ليست هي «جنة الآخرة[3]؛ لأنه لا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت، ثم بعد ذلك يُطرد منها، بل جنة الخلد هي كما أخبرنا الله – تعالى – عنها أنَّ كل من دخلها عاش في نعيمٍ أبدي»[4]

وحتى يثبت الشعراوي أنَّ هذه الجنة ليست جنة الخلد، وذلك سبيلًا لإثبات أنها «جنة التجربة أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج»[5] أخذ يستجمع من النص القرآني استعمالاته للفظة الجنة ومعانيها التابعة لهذا الاستعمال القرآني، ومن الجدير بالذكر تأثره البالغ بالأصفهاني في سرد تلك المعاني من خلال النص القرآني. يقول: «ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أنَّ الحق سبحانه وتعالى قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض...«فجن»

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

[3] لقد ورد في العهد القديم تحديد لمكان تلك الجنة، فلقد ورد في سفر التكوين: أنَّ هذه الجنة كانت على الأرض «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا» التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآية ٨.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

[5] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

هو الستر، ذلك أنَّ فيها أشجارًا كثيفة تستر من يعيش فيها...ونجد في القرآن (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ)[١] وهذه هي قصة الإخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض، فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم، فذهب الله بثمر الجنة، وأحرق أشجارها»[٢]

إذن يُنَبِّه الشعراوي إلى أنَّ لفظة «جنة» لا تعني فحسب جنة الخلد والمأوى، وإنما تعني معاني عدة، منها أنَّ «أصل الجن ستر الشيء عن الحاسة يقال جنه الليل وأجنه وجن عليه، فجنه ستره، وأجنه جعل له ما يجنه...»[٣]

واستمر الشعراوي في استحضار أمثلة أخرى من النص القرآني توضح أنَّ لفظة الجنة تطلق أيضًا على جنان الأرض، يقول: «وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين في قوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)[٤]، وهي قصة ذلك الرجل الذي أعطاه الله

---

[١] سورة القلم، الآيتان: ١٧، ١٨.

[٢] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

[٣] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٣.

[٤] سورة الكهف، الآية: ٣٢.

جنتين، فبدلًا من أن يشكر الله – تعالى – على نِعَمِه كفر، وأنكر البعث والحساب»[1]

ويستعرض مثالًا آخر من سورة سبأ، والذي يحمل قصة أهل سبأ «الذين هداهم الله وبيَّن لهم الطريق المستقيم، ولكنهم فضلوا الكفر، واقرأ قوله تبارك وتعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)[2]»[3]

لقد رصد الشعراوي – كما رأينا – بعض الآيات القرآنية التي استعملت لفظة «الجنة» في القرآن، في غير معنى جنة الخلد؛ وذلك ليسوقها دليلًا على أنَّ جنة آدم وزوجه لم تكن جنة الخلد، وإنما هي جنة جهزت لاختبار أعده الله – تعالى – لهما على تنفيذ التكاليف

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٢.

[2] سورة سبأ، الآيات: ١٥-١٧.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٢.

والتمرين على أدائها قبل بدء مهمتهما على الأرض، والتي حددت لآدم وزوجه قبل خلقهما.

ويبدو أنَّ تسمية هذا المكان بالجنة، من باب تصوير المعنوي بالمحسوس المادي، وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني: «سُميت الجنة إمَّا تشبيهًا بالجنة في الأرض – وإن كان بينهما بون – وإما لستْرَة نعَمِهَا عَنَّا...»[1]

ولقد انتهى الشعراوي من تلك النتيجة، وهي أنَّ هذه الجنة ليست جنة الخلد، بل هي جنة التجْربة والاختبار، إلا أنه لا يجب أن يقال: «إنَّ معصية آدم هي التي أخرجت البشر من الجنة؛ لأنَّ الله – تعالى – قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[2] فآدم مخلوق للخلافة في الأرض، ومن صلح من ذريته يدخل...الخلد في الآخرة، ومن دخل جنة الخلد عاش في النعيم خالدًا»[3] إذن لقد اعتبر الشعراوي أنَّ جنة آدم وزوجه قد أمدها الله – تعالى – بكل ما يضمن استمرار

---

[1] الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٤.

[2] سورة البقرة، الآية: ٣٠.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٣.

حياتهما، كما خلق لآدم وذريته على الأرض العديد من النعم، التي تضمن لهما استمرار حياتهما.

فهو يرى أنَّ هذه الجنة - بما أوجد الله - تعالى - فيها من نعم تضمن استمرار حياة آدم وزوجه - رمزٌ للحياة على الأرض، التي وَفَّر فيها للإنسان جميع النعم التي تضمن لها بقاءه، وهذا يعمن من ضمن مقومات التكليف الإلهي، وذلك تأكيدًا منه على كونها جنة اختبار مجهزة بكل المقومات، كما ستكون الحياة على الأرض، حتى يكون اختبارًا عادلًا؛ لذلك وجد فيها جميع مواد الامتحان على تنفيذ التكاليف بجميع مقوماته، التي تحفظ له صلاحيته في القيام بالمهمة الموكولة له كذلك كما هي مكفولة وموجودة على الأرض في حياة كل مُكَلَّف من ذرية آدم. يقول: «فكأنَّ الله - تعالى - قد أمد الجنة التي سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتهما قبل أن يسكناها، كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الإنسان قبل أن ينزل آدم إليها، إذن فقوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)[1] هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج»[2]

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٣.

وفي تناول الشعراوي لقضية الجنة، نجده قد سلك مسلكًا موضوعيًّا، وذلك من خلال النظر أولًا في استعمالات القرآن للفظة الجنة، حتى يُثبت فكرته الأساسية في معالجة موضوعه، وذلك من خلال إثباته أنَّ لفظة الجنة في استعمالات القرآن، لا تعني فقط جنة الخلد.

ومن هنا انطلق مؤكدًا أنَّ هذه الجنة هي جنة التجربة على تنفيذ التكليف الإلهي، وبالتالي ليست جنة الخلد التي بسبب معصية آدم فيها حرم نفسه وذريته المكوث فيها، بينما هي جنة لتمرينه على تنفيذ التكاليف الإلهية بشكل عملي لا نظري؛ وذلك حتى يتسلم آدم مهمته على الأرض، وقد استوعب من خلال التجربة العملية كيفيتها، وكذلك بنوه من بعده، ولقد استدل من خلال النص القرآن على ما يؤكد به أنَّ جنة آدم وزوجه جنة تجربة على تنفيذ التكاليف، وليس المقصود منها جنة الخلد، وذلك في استحضاره لقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...)[1] ولقد كان هذا الخطاب للملائكة قبل خلق آدم عليه السلام، فلو

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٠.

كانت جنة الخلد كما يقول بعضهم، فلماذا أخبر الله – تعالى – ملائكته بهذا؟

وقبل المُضيّ قُدُمًا مع خواطر الشعراوي حول موضوع «تطبيق التكاليف من خلال قصة آدم وزوجه في الجنة» أُقَدِّمُ ما عرجتْ إليه من بعض التفاسير، التي تمثل بعطائها العلمي المدارس الفكرية المختلفة التي ينتمي إليها أصحابها؛ حتى نرى مكانة رأيه مما قد قاله سابقوه ومعاصروه من المفسرين عن الجنة الواردة هنا في الآية، فَأَجَلْتُ النظر بين المدارس التفسيرية القديمة بمختلف مذاهبها الفكرية، وبين النظر في مدرسة التفسير في العصر الحديث، والتي يُعد الشعراوي واحدًا منها.

فمن علماء التفسير بالمأثور، لاحظت أنَّ الطبري لم يأت بهذا الخلاف حول كون الجنة في السماء أم في الأرض – كما عرض لها بعض المفسرين – أو كونها جنة الخلد أو جنة أخرى، بينما قرر أنَّ تفسير قوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)[1] أنَّ في هذه الآية «دلالة واضحة على صحة قول من قال: إنَّ إبليس أُخْرِجَ

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأسكنها آدم قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض...»[1]

ولقد أورد ابن عطية في تفسيره الرأيين، وأوضح قائلًا: إنَّ «الجنة البستان عليه حظيرة، واختلف في الجنة التي أسكنها آدم، هل هي جنة الخلد أو جنة أعدت لهما؟ وذهب من لم يجعلها جنة الخلد إلى أنَّ من دخل جنة الخلد، لا يخرج منها، وهذا لا يمتنع، إلا أنَّ السمع ورد أنَّ من دخلها مُثَابًا لا يخرج منها، وأمَّا من دخلها ابتداءً كآدم قصير مستحيل، ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها»[2] وما أدلى به ابن عطية انصب على كونها إما جنة الخلد أو جنة خاصة بهما أعدها الله لهما دون تحديد مكانها.

ولقد اكتفى ابن كثير بتسجيله الخلاف بين العلماء في جنة آدم وزوجه، في تفسيره بشكل موجز حين قال: «وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهي في السماء أم في الأرض؟ والأكثرون على الأول»[3]

بينما عرض لهذه القضية بالتفصيل في كتابه «قصص الأنبياء» ولكن دون إبداء رأي صريح منه حولها، بينما يظهر من كلامه ميله إلى رأي الجمهور، وهو أنها جنة الخلد. يقول ابن كثير: «والجمهور

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٦٦.

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص١٢٦.

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١/ص١١٢.

على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى؛ لظاهر الآيات والأحاديث...وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد؛ لأنه كُلِّفَ فيها ألا يأكل من تلك الشجرة؛ ولأنه نام فيها وأُخْرِجَ منها، ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى»[1]

ثم علَّق على رأي هذه الفئة قائلًا: «وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب[2]»[3]

ثم ذكر ابن كثير - نقلًا عن القاضي الماوردي - أنَّ من قال بهذا القول - وهو أنَّ الله - تعالى - جعل جنة آدم وزوجه دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء - اختلفوا على قولين: «أحدهما: أنها في السماء؛ لأنه أهبطهما منها هذا قول الحسن، والثاني: أنها في الأرض؛ لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نُهِيَا عنها دون غيرها من الثمار، وهكذا قول ابن يحيى، وكان

---

[1] ابن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق: أبي عمار مراد بن عبد الله، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ط. دار العنان.

[2] لقد ورد في سفر التكوين، أنَّ هذه الجنة كانت على الأرض، تقول التوراة: «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقًا» العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآية:٨.

[3] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥.

ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم، والله أعلم بالصواب من ذلك»[1]

ومن علماء مدرسة التفسير الشيعي يذكر الطبرسي أنَّ جمهرة من المفسرين، وكذلك بعض المعتزلة يرون أنَّ الجنة هي جنة الخلد. يقول الطبرسي: «وقال أكثر المفسرين والحسن البصري وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وكثير من المعتزلة كالجبائي والرماني وابن الإخشيد: إنها كانت جنة الخلد؛ لأنَّ الألف واللام للتعريف، وصارا كالعلم عليها...»[2]

بينما نجد إمامًا من أئمة الشيعة الزيدية وهو الإمام يحيى بن الحسين، يَرُدُّ في رسائله على من يدعي أنَّ الجنة هي جنة الخلد، ويرى أنها «جنة من جنات الدنيا ذوات الأنهار والغرف والأشجار، فسماها الله جنة»[3]

ولقد اعتمد الإمام يحيى بن الحسين في رأيه السابق على ما ورد في لغة العرب من تعريفات لكلمة الجنة – ولقد سلك الشعراوي

---

[1] ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥.

[2] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١/ص١٢٣.

[3] الإمام يحيى بن الحسين وآخرون، رسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق: د/ محمد عمارة، ج٢/ص١٢٧.

هـذا المسـلك – فـذكر «أنَّ مـن يـدخل جنـة المـأوى مـن عبـاد اللّٰه الصالحين لا يخرج منها، واستشهد بقول اللّٰه تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)[1] كما قال: (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)[2] فأخبر أنَّ من دخل جنة المأوى غير خارج منها أبدًا، وأنه لن يذوق بعد دخوله إياها نصبًا ولا شقاء...»[3] إذن فلقد أوضح الإمام يحيى بن الحسين استحالة كونها جنة الخلد، وبهذا نراه يخالف ما ذهب إليه الطبرسي.

ثم نجده يقرر بأنَّ هذه الجنة كانت على الأرض في بقعة شريعة جهزها اللّٰه – تعالى – لهما حتى تكون كاملة المتاع لآدم وزوجه. يقول الإمام يحيى بن الحسين: «وآدم كان في موضع قد بوأه اللّٰه له من الأرض، كريم شريف عظيم، خلقه فيه، وأجرى رزقه، ومرافقه عليه»[4]

---

[1] سورة البينة، الآية: ٨.

[2] سورة الحجر، الآية: ٤٨.

[3] الإمام يحيى بن الحسين وآخرون، رسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق: د/ محمد عمارة، ج٢/ص١٢٧.

[4] الإمام يحيى بن الحسين وآخرون، رسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق: د/ محمد عمارة، ج١/ص١٢٧.

وننتقل إلى رائد مدرسة التفسير بالرأي الإمام الرازي، فلقد أورد العديد من الأقوال مَهَّد بذكره لها، بالإشارة إلى اختلاف العلماء في الجنة المذكورة، فنقل في تفسيره أربعة أقوال؛ قول من قال إنها جنة الخلد، وقول من قال إنها ليست جنة الخلد، ومن قال بهذا اختلفوا على قولين؛ أحدهما: أنها في السماء، والثاني: أنها في الأرض[1]، ثم القول الرابع: وهو ما اختاره الرازي من جملة هذه الآراء، يقول الرازي: «إنَّ الكل ممكن، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقف، وترك القطع، والله أعلم»[2] فلم يقر الرازي رأيًا بعينه، واختار السكوت موقفًا من جملة ما قيل، فذكر جميع ما ورد من آراء حول جنة آدم وزوجه دون ترجيح لأيها على الآخر، بل أخبر بإمكانها جميعًا، وذلك مع إرشاده الباحثين بضرورة التوقف عن الخوض في مضمارها؛ لتعارض وضعف الأدلة.

وننتقل إلى رائد مدرسة استنباط الأحكام من النص القرآني الإمام القرطبي، والذي اعترض في تفسيره على من ذهب من العلماء، وقال: بأنَّ آدم «لم يكن في جنة الخلد، وإنما كان في جنة بأرض عدن، واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، راجع النص ج٢/ص٥-٨.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، راجع النص ج٢/ص٨.

وصل إليه إبليس»[1] فالقرطبي يرى أنَّ جنة آدم وحواء هي جنة الخلد، واعتراضه على الرأي السابق بأنه بدعة، كان من هذا المنطلق، وكذلك من منطلق «أنَّ أهل السنة مجمعون على أنَّ جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم – عليه السلام – فلا معنى لقول من خالفهم»[2]

هذا بالنسبة للقدماء من أعلام المفسرين، أمَّا بالنسبة لكتب التفسير في العصر الحديث، نجد في تفسير المنار ذكره للخلاف الواقع بين علماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم في هذه (الجنة) هل هي البستان الذي على الأرض، أم هي دار الخلد الموعود بها في الآخرة؟ وانتهى تفسير المنار إلى رأي الإمام/ أبي منصور الماتريدي، والذي أورده في تفسيره المسمى بالتأويلات، والذي قال فيه: «نعتقد أنَّ هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها، وهذا هو مذهب السلف، ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم»[3]

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص٣٤٥.

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص٣٤٦.

[3] تفسير المنار، ج١/ص٢٢٩-٢٣٠.

وننتقل إلى تفسير آخر من كتب التفسير في العصر الحديث وهو «التفسير القرآني للقرآن» للشيخ الخطيب، وخلاصة ما ذكره حول جنة آدم وحواء أنَّ آدم كان في جنة أرضية وليست سماوية، يقول: «فآدم مخلوق أرضي أُنْبِتَ في الأرض، كما نبتت سائر المخلوقات التي دبت عليها»[1] ولذلك قرر أنَّ تلك الجنة «لا تعني جنة وراء الحس...فالله خلق آدم من الأرض، فمتى صعد به إلى جنة السماء!»[2]

وننتقل إلى تفسير الشيخ الغزالي، والذي لم يُشِرْ فيه بشكلٍ مباشرٍ إلى ماهية جنة آدم وزوجه، بينما يُفهم من سياق كلامه رأيه حول هذا الموضوع، وهو أنَّ جنة آدم وزوجه هي جنة الخلد التي في السماء، وهذا رأي جمهور العلماء – كما رأينا – رغم الخلاف الواقع بينهم فيه، فيعقب الغزالي على خروج آدم وزوجه من الجنة بأنه «فقد آدم ما كان فيه من نعيم، وهبط هو وزوجته إلى الأرض ليأكلوا بكد اليمين وعرق الجبين»[3]

---

[1] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج١/ص٧٥.

[2] المرجع السابق، ج١/ص٧٥.

[3] محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص١١٣.

ولاحظتُ مما سبق عرضه من بعض كتب مدارس التفسير القديمة باختلاف اتجاهاتها في التفسير، وكذلك بعض النماذج من كتب التفسير في العصر الحديث من وجود خلاف واضح بين جمهرة المفسرين بمختلف المدارس الفكرية والمذهبية التي ينتمون إليها، حول ما إذا كانت هذه الجنة جنة الخلد أم لا؟ هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى خلافهم حول مكانها...أكانت في السماء أم في الأرض؟

ولقد اختار الشعراوي من جملة ما قاله جمهور المفسرين ما رآه صحيحًا، وكذلك ما يتوافق وبناء موضوعه الذي شرع في تأسيسه على بعض العناصر التي عالجها في الموضوع.

ولقد لاحظتُ عدم إشارته إلى وجود اختلاف حاصل حول هذا بين العلماء، ويبدو أنه قد سلك هذا المسلك؛ لأنه يطالع جمهورًا يموج بالمثقفين وغير المثقفين والمتخصصين في الدراسات الإسلامية وغيرهم، وأيضًا لإدراك الشعراوي بفطنته أنه ليس من الحس الإعلامي الرشيد في الدعوة، أن يعرض مثل هذا الاختلاف في الأمور الغيبية علنًا في المحافل الإعلامية؛ لذلك كله لم يعرض لهذا الاختلاف، بينما اختار رأيًا واحدًا من خضم هذا الاختلاف، وأيده بالشواهد القرآنية التي تدعمه، وبنى عليه باقي الموضوع، فاختار أنَّ جنة آدم وزوجه لم تكن جنة الخلد، بل هي "جنة تجربة على تطبيق

التكاليف الإلهية" وأراد من خلال إثبات أنها جنة تجربة – أعدها الله تعالى لآدم وزوجه – أن يثبت كونها جنة اختبار لآدم وزوجه على مدى تنفيذ التكاليف الإلهية، فاستحضر من النص القرآني مواصفات جنة الخلد، والتي لم تتوفر في جنة آدم وزوجه؛ وذلك حتى يثبت أنها جنة تجربة، ولقد سعى هذا المسعى، واستفاض فيه؛ لأثره الواضح بعد ذلك في بناء موضوعه، ولهذا أخذ بعد ذلك في عرض عناصر التكليف الإلهي لآدم وزوجه في جنة التجربة كما أسماها.

وقبل أن نكمل المسير مع موضوعه، أود أن أشير إلى أنَّ تعبير «جنة التجربة» انفرد الشعراوي بالتصريح بتلك التسمية لهذه الجنة، بينما وجدت في بعض كتب التفسير في العصر الحديث من يشير إلى ما أشار إليه الشعراوي من فكرة تَعَرُّض آدم لتجربة تَحَمُّل أمانة التكليف الإلهي دون التصريح بعبارة "جنة التجربة" ليعرف عدوه إبليس عن طريق التطبيق العملي، ويتزود آدم وزوجه–عليهما السلام– بتجربة الاختبار ليتكشف لهما عداوته وليبصرهما الله – تعالي– بقوة الإرادة التي يمتلكها هو وزوجه وذريته والتي لابُدَّ أن تقود الإنسان إلي تنفيذ تكاليف الله –تعالي– له، وتنأي به عن مخالفته بالاستجابة لغواية إبليس.

ولقد عَبَّر الفيلسوف محمد إقبال في معرض حديثه عن المرحلة الأولى التي عاشها آدم – عليه السلام – في تلك الجنة من أنَّ هذا «الطور من حياته لم يكن قد عرف نفسه، ولم يكن قد تعرف على ما فيه من إرادة، وأنه لم يكتمل فيه الإنسان الذي ظهر بعد أن أكل من الشجرة»[1]

إذن فهي التجربة التي تَعَرَّض لها آدم وزوجه في الجنة كانت تمحيصًا له، حتى يدرك حقيقة كوامن نفسه، من امتلاكه لحرية الإرادة، التي لها القدرة على اختيار الشر، والقدرة على اختيار الخير، والعلاقة الوطيدة بين ذلك وموضوع التكليف" افعل ولا تفعل" وهذا ما أراد الشعراوي أن يُبَيِّنه لجمهوره، وهو أنه قد اقتضت المشيئة الإلهية أن يتلمس آدم – عليه السلام – تلك القدرات التي وهبها الله – تعالى – له وذلك من خلال التجربة العملية. يقول: «فالله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري؛ لأنَّ هناك فرقًا بين الكلام النظري والتجربة»[2] فتكوين الإرادة لا يتم إلا بالتجربة كما قالت بالفاتسكي «Balvatski»[3]

---

[1] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص٩٨.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦١.

[3] لقد ذكر محمد إقبال في كتابه عنها، أنها كانت على حظ كبير من العلم بالرمزية القديمة، وما استشهد به محمد إقبال كان عن كتابها «المذهب السري Secret Doctrine».

محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص١٠١.

التي استشهد برأيها محمد إقبال في قضية الخطأ البشري حين تناول قصة آدم وزوجه في الجنة، تقول بالفاتسكي: «...فإنَّ الخطأ الذي قد يُوصَف بأنه نوع من البشر العقلي عامل لا محيص عنه في بناء التجربة»[1]

فلقد ميَّز الله – تعالى – آدم – عليه السلام – بطبيعة مختلفة عن طبائع سائر المخلوقات «ومنها طبيعة الملك، فقد جعلها طبيعة مُدْرِكَة ومُمَيِّزة بين الحق والباطل، والخير والشر، ومن شأنها أن تسمو به وبالإنسان من ذريته فوق الدنايا والمتع المادية، ويدخل بهذه الطبيعة تجربة أرادها الله له، وهي تجربة الإغراق المادي ..»[2]

لذا يرى د/ محمد البهي أنَّ ما مرَّ به آدم وزوجه[3] في الجنة ما هو إلا تجربة، خاضا فيها الصراع بين خب التملك والاستحواذ

---

[1] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص١٠١.

[2] د/ محمد البهي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، تفسير سورة الأعراف، ص١٦-١٧.

[3] لقد أورد الرازي في تفسيره: «...أجمعوا على أنَّ المراد بالزوجة حواء، وإن لم يتقدم ذكرها في هذه السورة وفي سائر القرآن ما يدل على ذلك...» الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢/ص٦.

ويبدو أنهم كانوا ينقلون عن التوراة...ما لم يذكره القرآن، ولقد أشار الطبري إلى ذلك، انظر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٦٧.

وما ورد في التوراة عن ذلك كما أشار الطبري هو: «ودعا آدم اسم امرأته حواء؛ لأنها أم كل حي» التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآية: ٢٠.

الذي جُبِلَ عليه الإنسان وبين إغواء الشيطان الخبير بتلك الطبيعة الإنسانية والمستغل لها، ولهذا وصف د/ محمد البهي «إبليس» «بمصدر الشر»[1] الذي بسببه ستظل رحى الصراع تدور بينه وبين بني آدم، إلى أن تنتهي الحياة على الأرض، ويخرج الناس جميعًا منها إلى الحياة الأخروية، فلطبيعة الإنسان من جهة، ولغواية إبليس من جهةٍ أخرى، اقتضت رحمة الحق بهذا المخلوق الضعيف أن يهبط لمقرٍ خلافته ودار امتحانه متسلحًا بهذه التجربة التي سيلقى مثلها كثيرًا لكي تكون عبرة وعظة في هذه الرحلة.

ومن هذا المنطلق يتضح لنا تأكيد الشعراوي أنَّ جنة آدم وزوجه هي «جنة تجربة على تطبيق التكاليف» وامتحان للإرادة الإيمانية التي وهبها الله – تعالى – حرية الاختيار، حيث أنَّ «...حرية الإرادة البشرية فوق الجدل، وإلا سقط التكليف كله، واعتبر الوجود مهزلة»[2]

ولهذا فقد أطلق الشعراوي على هذه الجنة «جنة التجربة» على تطبيق التكاليف، تَعَرَّض فيها آدم وزوجه لمنهج علمي مؤسس على مبدأ «افعل ولا تفعل» مع توافر المباح، ووجود المحرم، وحدوث الغواية من إبليس، وطبيعة النفس التي تهوى وتحب.

---

[1] د/ محمد البهي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، تفسير سورة الأعراف، ص١٧.

[2] محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص١٢٢.

(ب) معالم التكليف الإلهي لآدم في الجنة وموضوع تطبيق التكاليف الإلهية:

ونواصل مع الشعراوي عناصر موضوع تطبيق التكاليف الإلهية، فنراه يحدد معالم التكليف الإلهي، وما يحمله من إشارات حول قضية التكليف الإلهي بشكلٍ عام. فنراه يربط بين تكليف آدم في الجنة وبين التكليف الإلهي لبَنِيه من بعده، وكذلك يتناول من خلال معالم التكليف المعبر عنها في هذه القصة بصيغ معينة، وضع المرأة في موضوع تطبيق التكاليف الإلهية، وذلك في إشارة سريعة، فلقد أوضح الشعراوي معالم التكليف الإلهي، من مباحاته ومحظوراته في «جنة التجربة» كما أسماها كالتالي يقول: «وقوله تعالى: (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) هو استكمال للمنهج، فهناك أمرٌ ونهي، افعل ولا تفعل (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) أمر، (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا) أمر، (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) نهي»[1]

ويذكر الرازي أنَّ أمر إسكان آدم وزوجه الجنة مشتمل على «ما هو إباحة، وعلى ما هو تكليف، أمَّا الإباحة فهو أنه عليه السلام كان مأذونًا له في الانتفاع بجميع نعم الجنة، وأما التكليف فهو أنَّ المنْهِي عنه كان حاضرًا، وهو كان ممنوعًا عن تناوله»[2]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٤.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، راجع النص ج٢/ص٥-٦.

ثم حلَّق الشعراوي في أجواء القصة، وعلا فوق أحداثها، وبدا يُبْرِزُ مزيدًا من خواطره حول الإيحاءات الذي يرمي إليها هذا المشهد من القصة في موضوع تطبيق التكاليف؛ ليبرزها أمام كل مُكَلَّف مخاطب بهذا القرآن، حتى يعي الدرس المستفاد من القصة التي يعرض لها النص القرآني، فيفهم عن الله – تعالى – مراده الحقيقي من سوقها في القرآن الكريم؛ لذلك يقول الشعراوي عن التكليف في قصة آدم وزوجه: «وهذا أول منهج يعلم الإنسان الطاعة لله – سبحانه وتعالى – والامتناع عما نهي عنه، وكل رسائل السماء ومناهج الله في الأرض أمر ونهي...افعل كذا ولا تفعل كذا»[1]

وما أجمله الشعراوي في العبارة السابقة أخذ يفصله بعد ذلك، فشرع يعبر عن خواطره حول «جنة التجربة» كما أسماها وعن الحياة الدنيا، وما يجمع بينهما من وجوه، وما تحمله جنة التجربة من عِبَر لكل مُكَلَّف، فسعى يتلمس خيوط الربط بينهما في موضوعية مترابطة الأطراف، فمضى يحدثنا كيف أنَّ الله – تعالى – ضَمِنَ الحياة الطيبة لآدم وزوجه في الجنة، فلقد كان لآدم وزوجه «المباح كثير، والممنوع قليل، فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم، ولا قيد إلا على شيء واحد...شجرة واحدة من بين ألوف

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٤.

الأشجار التي كانت موجودة في الجنة..شجرة واحدة فقط هي المنوعة»[1]

وفي هذا يقول الزمخشري في تعبير القرآن بلفظي (رَغَدًا) و(شِئْتُمَا) أنَّ رغدًا هي «وصف للمصدر؛ أي أكلا رغدًا واسعًا رافهًا...(شِئْتُمَا) أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلة حين لم يحظر عليهم بعض الأكل، ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة؛ حتى لا يبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفائتة للحصرة»[2]

ثم أخذ الشعراوي يدلي بخواطره حول معالم تكليف آدم وزوجه في «جنة التجربة» بالمنهج الذي أمرهما الله – تعالى – به، وما يشي به من إيحاءات خاصة بمنهج وتكليف السماء لأهل الأرض. يقول: «وإذا نظرت إلى منهج السماء إلى الأرض تجد أنَّ الله – تعالى – قد أباح فيه نعمًا لا تُحصى ولا تُعد وقيَّد فيه أقل القليل، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة، والمباح بعد ذلك كثير...»[3]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٤.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج١/ص١٣١.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٤.

ويُبَرهن الشعراوي علي ما ذهب إليه؛ بأنَّ "جنة آدم" قد وُفِّر لهُ فيها جميع مقومات الحياة، كما هي مكفولة للإنسان على الأرض، ثم يأتي الشعراوي بوصف القرآن "لجنة آدم" وزوجه كي يؤكد المضمون السابق و يؤكد مرة أخرى أنها ليست جنة الخلد، بل هي "جنة تجربة على تطبيق التكاليف الإلهية" يقول الشعراوي: «..هذه جنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجه فيها؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)[1] هذه عناصر الحياة التي وفرها الله – تعالى – لآدم وزوجه في جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف»[2] فكما رأينا وسنرى أنَّ موضوع التكاليف الإلهية"افعل ولا تفعل" هو المحرك الأساسي للشعراوي في جميع عناصر بناء موضوعه، وذلك من خلال خواطره حول قصة آدم وزوجه في الجنة، فهي الخط الخفي الساري بين أركان موضوعه، والجلي لمن يستكشف سعيه لتوضيح معالم هذا الموضوع من خلال القصة.

---

[1] سورة طه، الآيتان: ١١٨، ١١٩.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٦.

ولذلك فلقد استوقف الشعراوي التعبير القرآني الوارد في القصة (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)[1] فنراه يطالعنا على حكمة القرآن في استعمال هذه الصيغة للتعبير عن الأمر التكليفي لآدم وزوجه، موضحًا الأبعاد التي ترمي إليها هذه الصيغة أيضًا من احترام القرآن لكيان المرأة، وتميزه لشخصيتها، وأنَّ لها شخصية مستقلة ومسئولة مثلها مثل الرجل. يقول الشعراوي: «يقول الحق سبحانه وتعالى: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ)[2] وكان من الممكن أن يقول: «اسكن وزوجك» لأنَّ الفاعل في فعل الأمر دائمًا مستتر، ولكنه سبحانه وتعالى، قال: اسكن أنت وزوجك...وإياك أن تظن أنَّ أنت هو فاعل الفعل اسكن، ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل»[3] وذلك التوضيح منه ليؤكد أنَّ الأمر التكليفي سواء فيه الرجال والنساء، فالنساء شقائق الرجال، ويبرهن على هذا المغزى من خلال النص القرآني، فيأتينا منه بالشاهد الذي يُظهر هذا المعنى ويؤكد، يقول: «لا بُدَّ أن نلاحظ أنَّ كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله، ولذلك لم يأت بتاء

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

[2] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٦.

التأنيث...اسكن أنت وزوجتك؛ لأنَّ الأمر التكليفي من اللّٰه سواء فيه الذكر والأنثى، واقرأ قوله تعالى: (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[1] إذن فهما متساويان في هذه الناحية»[2]

وما أشار إليه الشعراوي آنفًا إنما هو لمحة سريعة لها مغزى مهم في موضوع التكاليف الإلهية، من جهة إظهاره لدور المرأة، ووضعها من قضية التكاليف الإلهية، ومن جهة أخرى في رفع التهم عن الإسلام فيما يرمي به بهتانًا وظلمًا حول قضايا المرأة، والتي يثيرها خصوم الإسلام، ويعتبرونها أحد الشبهات التي يطعن بها فيه، فنرى الشعراوي لا يغفل عن التنويه إلى مساواة المرأة للرجل في كل شيء في الإسلام، بل وفي قمة الأمور وأعلاها، وهي الأمور التشريعية، «فقد ظلمت المرأة في بيئات كثيرة، وغريب أن يُرَدُّ الحيف عليها إلى تعاليم الإسلام التي أنصفتها»[3]

---

[1] سورة غافر، الآية: ٤٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٦.

[3] محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص٢١.

(ج) فقه صيغ التحريم في موضوع تطبيق التكاليف الإلهية:

ولقد استوقف الشعراوي التعبير القرآني (وَلَا تَقْرَبَا[1] هَذِهِ الشَّجَرَةَ)[2] وأخذ يتمعن في حكمة التحريم بهذه الصيغة، وعلاقة ذلك بموضوع تطبيق التكاليف الإلهية، من حيث بلاغة هذه الصيغة وغيرها في وقاية النفس الإنسانية من الانزلاق في مهاوي عصيان التكاليف الإلهية، فنراه يلقي بالضوء على أنَّ الحكمة هنا في استعمال هذه الصيغة في التحريم، هو إحاطة الله – تعالى – بالمسالك التي يدخل إبليس منها إلى بني آدم، فينتج عنها غوايتهم، فينصرفوا عن الامتثال لتنفيذ التكاليف الإلهية التي عَرَّفها العلماء بأنها «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا أي طلبًا

---

[1] (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)، «جاء في كتب التفسير أنَّ إبليس حاول آدم على أكلها فلم يقدر عليه، وحاول حواء فخدعها، فأكلت فلم يصيبها مكروه، فجاءت آدم فقالت له: إنَّ الذي تكره من الأكل قد أتيته فما نالني مكروه، =فلما عاين ذلك آدم اغتر فأكل، فحلت بهما النقمة والعقوبة، وذلك لقول الله سبحانه: (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)، فجمعهما في النهي، فذلك لم تنزل بهما العقوبة حتى وجد المنهي عنه منهما جميعًا» أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج١/ص٣٤، ط. دار المعارف، وهذا الرأي مما لا سند له.

[2] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

أو تخييرًا، والطلب هو إمَّا طلب كف، وإمَّا طلب فعل، وأنَّ التخيير معناه الإباحة»[1]

وسنلاحظ أنَّ الشعراوي لم يصف هذه الصيغة في التحريم كما وصفها علماء الأصول، بينما حدثنا عن فلسفة التحريم بها، وذلك من جهة كونه مفسرًا للقرآن يتلمس أسباب الهداية للناس من خلال وصفه لبديع الأسلوب القرآني في دقة صيغه في التعبير عن الأمور التكليفية وانعكاساتها على المعنى المراد تنفيذه من المُكَلَّف، ومردودات هذا الفهم الصحيح لصيغ التحريم على موضوع تطبيق المكلف للتكاليف الإلهية.

وكذلك انصب هدف الشعراوي في معالجة «موضوع تطبيق التكاليف الإلهية» على رد شُبَه الجُهَّال والمشركين في أنَّ هذه الصيغة ومثلها في القرآن لا تعني التحريم؛ أي لم تُعَبِّر بصيغ مباشرة معروفة في التحريم، فخرج من حيز هذا النهي في القصة والصيغة المستعملة فيها إلى حيز أكبر، من خلال النظر في استعمال القرآن لصيغ معينة في التحريم ومدى فائدتها في تصوير المعنى بالشكل الذي يتناسب وواقع تنفيذ التكليف؛ ليوجه الجمهور من خلال هذا

---

[1] محمد أبو زهرة، أصول الفقه، ص١٦١، ط. دار الفكر العربي.

إلى أنَّ صيغ التكليف الإلهي متنوعة بحسب الغرض المستعملة فيه، وكل صيغة لها إيحائها الخاص بها في التحريم أو الإباحة. يقول الشعراوي: «...ولا تقربا هذه الشجرة، أي لا تقرب من مكانها، فلم يقل لا تأكلا من هذه الشجرة؛ لأنه لو قال: لا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحًا لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها، فحينئذٍ يحدث الإغواء، وتمتد أيديهما تحت هذه الإغراء إلى الشجرة ليأكلا منها»[1]

ومما يعضد هذا الرأي ما ذهب إليه رائد مدرسة التفسير بالرأي، وهو الرازي في تسجيل اعتراضه على من رأى أنّ النهي هنا «يفيد بفحواه النهي عن الأكل، وهذا ضعيف...فالنهي عن ذلك بهذا القول يعم الأكل وسائر الانتفاعات، ولو نص على الأكل ما كان يعم كل ذلك، ففيه فريد فائدة»[2] وهذه الفائدة الفريدة التي أشار إليها الرازي، هي ما سعى الشعراوي لإبرازها.

ثم اتجه الشعراوي مستحضرًا من النص القرآني نظير هذا الأسلوب في التحريم، وهو تحريم القرب من مجالس الخمر، في

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٧.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢/ص١٠.

إطار موضوعي، يربط فيه حاضر الأمة بماضيها، أسوة بمنهج القرآن الكريم.

فأوضح الشعراوي أنَّ التكليف الإلهي باجتناب مجالس الخمر، وتكليف آدم وزوجه بعدم الاقتراب من الشجرة المحظورة واجتنابها، هي صيغ دقيقة لتوجيه وحماية المكلف من عملية الإغواء؛ وذلك لأنَّ الله – تعالى – عالم بالنفس البشرية، وبوسائل التأثير فيها. يقول الشعراوي: «فالله – تعالى – يعلم أنَّ النفس البشرية إذا حُرِّمَ عليها شيء، ولم تحم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله، فالله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر، وإلا كنا جلسنا في مجالس الخمر ومع الذين يشربونها أو نتاجر فيها، وهذا كل إغراء بشرب الخمر، ولكنه قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ[1] وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

[1] يقسم علماء أصول الفقه الإسلامي الحرام إلى نوعين: حرام لذاته، وحرام لغيره، ويندرج الخمر تحت المحرم لذاته. يقول الإمام/ محمد أبو زهرة: «فالحرام ينقسم إلى ما يكون ضرره ذاتيًّا، وإلى ما يكون عرضيًا؛ لأنه يؤدي إلى أمر ضرره ذاتي، ولذلك يقسمون الحرام قسمين: حرام لذاته، وحرام لغيره. فالحرام لذاته ما قصد به الشارع إلى تحريمه لما فيه من ضرر ذاتي كأكل الميتة، وشرب الخمر، والزنى، =والسرقة، وغير ذلك مما يمس الضروريات الخمس، وهي حفظ الجسم، والنسل، والمال، والعقل، والدين، فالمحرم لذاته يمس الضروري في واحد من الأمور الخمسة»، محمد أبو زهرة، أصول الفقه، ص٣٨.

تُفْلِحُونَ)[1] فهذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الأماكن التي فيها خمور»[2]

ولقد ذكر علماء أصول الفقه أنه من ضمن صيغ التحريم[3] «أن يكون الأمر بالاجتناب مقترنًا بذلك نحو (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)»[4]

ثم وَضَّح الشعراوي أنَّ القرآن الكريم حين يُعَبِّر عن الشيء المحرم يأخذ صيغًا بالغة في الشدة، بل وأقوى في الدلالة من كلمة «حرم» الصيغة الصريحة في التحريم، ولهذا السبب يلقي الشعراوي باللوم على الذين يتشدقون بجهل في أنَّ صيغ (لَا تَقْرَبُوا) و(اجْتَنِبُوا)

---

[1] سورة المائدة، الآية: ٩٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٧.

[3] «فالمحرم هو ما طلب الشارع الكف عن فعله حتمًا، بأن تكون صيغة طلب الكف نفسها دالة على أنها حتم كقوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) وقوله: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)، وقوله: (لَا يَحِلُّ لَكُمْ) أو يكون النهي عن الفعل مقترنًا بما يدل على أنه حتم مثل: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) أو يكون الأمر بالاجتناب، أو أن يترتب على الفعل عقوبة مثل (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)»، راجع عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الإسلامي، ص١١٣، ط. الثامنة لدار القلم.

[4] عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الإسلامي، ص١١٣.

ليست صيغًا تحريمية، وأدلى بأنَّ هذا جهل بفقه اللغة العربية ذات التنوع في الألفاظ والعبارات كما سنرى.

ولذلك يدعونا الشعراوي - من خلال استقراء النص القرآني - أن نمعن النظر في استعماله لصيغ معينة للتحريم، ثم التفقه في حسن دلالتها على المعنى المراد، من حيث إرشادها المكلف على الطريقة السليمة التي تعينه على أداء التكليف الإلهي المنوط إليه، وينوه الشعراوي على ذلك من خلال الأمثلة التي ضربها، وهي عدم الاقتراب من مجالس الخمر، وعدم الاقتراب من الشجرة المحرمة قائلًا، وسائر الصيغ التي على غرارها في القرآن قائلًا: «فإذا رأيت مكانًا فيه خمر فابتعد في الحال، حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله، والحق جل جلاله يقول في المحرمات: (لَا تَقْرَبُوا)، و(اجْتَنِبُوا) أي لا تحوموا حولها؛ لأنها إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها؛ وذلك يقول الرسول ﷺ: «إنَّ الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في

الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حمى وحمى الله محارمه»[1]»[2]

ولقد استحضر الشعراوي الشاهد النبوي السابق؛ لكي يدعم به معالجته حول دقة الصيغ القرآنية في التحريم، وانعكاسات الفهم الصحيح لدلالتها على تطبيق المكلفين للتكاليف الإلهية، فالحديث يشير إلى ضرورة أن يقي الإنسان نفسه مواطن الشُبَه، حتى لا يسنح لنفسه فرصة الوقوع فيها، فيعصم نفسه بالورع، الذي يجعله

---

[1] حديث متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم ٥٢، فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني، ج١/ص٢٢٧.

صحيح مسلم بشرح الإمام أبي زكريا يحيى بن شرق النووي الدمشقي، في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم ١٥٩٩، ج. السادس، ص٢٣، ط. دار الفكر بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٠م.

وأصل نص الحديث الذي اتفق عليه الشيخان كالتالي كما أورده الألباني: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراعٍ يرعى حول الحمة يوشك أن يواقعه، ألا وإنَّ لكل ملك حمى، أي وإنَّ حمى الله – تعالى – محارمه، أي إنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، ج١/ص٦٠٨-٦٠٩.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٧.

«يبرأ دينه من النقص، وعرضه من الطعن فيه؛ لأنَّ من لم يعرف باجتناب الشبهات لم يسلم لقول من يطعن فيه، ومن لم يتق الشبهة في كسبه ومعاشه، فقد عَرَّض نفسه للطعن فيه، وفي هذا إشارة إلى المحافظة على أمور الدين ومراعاة المروءة»[1] وكذلك يرشد الحديث كما أشار ابن حجر إلى «أنَّ الحلال حيث يخشى أن يؤول فعله مطلقًا إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه»[2] فمن جملة ما يرشد إليه الحديث هو الورع؛ لأنه من سمات الحفاظ على الدين.

لذا نرى الشعراوي يرصد الظاهرة التالية، والتي نوَّهت عنها قبل ذلك. يقول: «ولقد كان بعض الناس يُقبلون على شرب الخمر، ويقولون أنه لم يرد فيها تجريم صريح..فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت...نقول: إنَّ كلمة اجتنبوا أشد من التحريم، فقوله تعالى: (اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) معناه ألا تنظر حتى إلى الصنم، واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها...»[3]

---

[1] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١/ص٢٢٨-٢٢٩.

[2] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١/ص٢٢٩.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٨.

ولا بُدَّ أن أشير إلى أنه يلزم المتصدي للنص القرآني؛ لمعرفة حلاله من حرامه أن يكون مطلعًا على ما يعينه على فهم ذلك، ومنها استعمالات القرآن لصيغ التحريم «فقد يستفاد التحريم من صيغة خبرية تدل عليه، أو من صيغة طلبية هي نهي، أو من صيغة طلبية هي أمر بالاجتناب، فالقرينة تعين أنَّ الطلب للتحريم»[1]

ولقد عَلَّق ابن عطية على بلاغة هذه الصيغة في قوله تعالى: (لَا تَقْرَبَا[2] هَذِهِ الشَّجَرَةَ[3])[4] «أنه سبحانه لما أراد النهي عن أكل الشجرة، نهي عنها بلفظة تقتضي الأكل، وما يدعو إليه وهو القرب»[5]

---

[1] عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه وخلاصة التشريع الإسلامي، ص١١٣.

[2] وقد قرئت هذه الآية: «ولا تقربا بكسر التاء يحيى بن شومان، ولا تقربا هذي...بالياء ابن كثير في بعض رواياته، هذه الشِجَرَة بكسر الشين أبو السمال، هذه الشيَرَة بالياء حكاه أبو زيد».
ابن خالويه، مختصر في شواذ القراءات، ج١/ص١٢.

[3] ولقد أورد القرطبي في أن «الشجر والشجرة ما كان على ساق من نبات الأرض»، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص...

[4] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

[5] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ج١/ص١٢٧.

وهذا ما اعتبره ابن عطية في تفسيره لهذه الآية أنه «مثال بيِّن في سد الذرائع»[1]

الخلاف في نوع الشجرة المحرمة وموقف الشعراوي منه:

لقد كان الموضوع الأساسي الذي سعى الشعراوي إلى بنائه هو «موضوع تطبيق التكاليف الإلهية» فهو الباعث الذي يحركه في جميع معالجاته لعناصر الموضوع، والذي يرى بأنَّ قصة آدم وزوجه في الجنة جاءت لتعلم درسًا أبديًّا لكل المكلَّفين تجاه تطبيقهم للتكاليف الإلهية إلى أن تقوم الساعة.

وبالتالي لا يجب أن ننصرف عن هذا الدرس إلى فرعيات لا تُسمن ولا تُغني من جوع حين تناول هذه القصة، ولهذا السبب نراه في مسألة تحديد نوع الشجرة المحرمة في القصة، يُنَبِّه إلى ضرورة عدم الخوض في مثل تلك الغيبيات والانخراط فيها.

فهو يرى أنَّ هذا السعي في التحديد يُفسد حقيقة المعاني التي تحملها القصة، وهي أنَّ هذه الشجرة المحرمة في جنة آدم وزوجه ما هي إلا شيء محرم الاقتراب منه، وهذا تكليف من الله – تعالى – لهما، وهي كذلك رمز لكل محرم على الأرض في حياة المكلفين،

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز، ج١/ص١٢٧.

فتنفيذ الأمر الإلهي هو طاعة للتكليف الإلهي، وعدم تنفيذه هو عصيان للتكليف الإلهي، وهذا هو المغزى الأساسي كما يراه الشعراوي من عرض هذه القصة، يقول: «وقد اختلف الناس في نوع هذه الشجرة[1]، وهل هي شجرة تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك، ونحن نقول: ليس هذا هو المقصود، ولكن المقصود هو التحريم؛ لأنَّ منهج الله – سبحانه وتعالى – يحلل أشياء ويحرم أشياء»[2]

وهذا الموقف في الحقيقة الذي التزمه الشعراوي في الاعتراض على تحديد نوع الشجرة، هو ما أقره ونَبَّه إليه أغلب رواد المفسرين بمختلف المذاهب الفكرية التي ينتمون إليها.

فلقد سرد الطبري كل الأقوال التي وردت في تحديد نوع هذه الشجرة، دون انتخاب لأي منها، ورأى أنَّ «الصواب في ذلك أن يقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه نهي آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت

---

[1] لقد ورد في التوراة اسم لهذه الشجرة في سفر التكوين: «وأوصى الرب الإله آدم قائلًا من جميع شجر الجنة تأكلان أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت» التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآيتان: ١٦، ١٧.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٨.

على التعيين؛ لأنَّ اللّه لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة، فأنَّى يأتي ذلك؟»[1]

ولقد علَّق ابن عطية على المرويات المنقولة عن ابن عباس في تحديد نوع هذه الشجرة قائلًا: «هذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس»[2]

وكذلك رفض ابن عطية ما حكاه الطبري عن يعقوب بن عتبة من «أنها الشجرة التي كانت الملائكة تحنك بها الخلد»[3] ويتضح من تضعيفه لهذه المرويات موقفه العام من قضية تحديد نوع هذه الشجرة، وهو رفضه لجميع ما قيل حول هذا التحديد، بينما ذكر الطبرسي الآراء الواردة حول تحديد نوع هذه الشجرة في اختصار، ولكن دون أن يصرح برأيه في جملتها، كما فعل الطبري وابن عطية.

يقول الطبرسي: «واختلف في الشجرة التي نُهِي عنها آدم، فقيل: هي السنبلة عن ابن عباس، وقيل: هي الكرمة عن ابن مسعود والسدي، وقيل: هي التينة عن ابن جرير، وقيل: هي شجرة الكافور

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٧٠، ٢٧١.

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص١٢٧.

[3] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص١٢٧.

يـرُوى عـن علـي، وقيـل: هـي شـجرة الخلـد التـي كانـت تأكـل منهـا الملائكة عن ابن جذعان»[1]

وينبه الرازي إلـى أنـه ليسـت هنـاك ضـرورة إلـى تعـين نـوع تلـك الشـجرة، ولا يوجد ما يساعد على تعينهـا، إذن فـلا حاجـة إلـى بيـان نوعهـا «لأنـه لـيس المقصـود مـن هـذا الكـلام أن يعرفنـا عـين تلـك الشـجرة، ومـا لا يكـون مقصـودًا في الكـلام لا يجـب علـى الحكيم أن يبينه...»[2]

ونجد من أربـاب المدرسـة الحديثـة في التفسـير امتثالهم لـنفس هذا الاتجاه، فنجد في تفسير المنار أنَّ اللّه تعالى «لـم يعـين لنـا هـذه الشـجرة، فـلا نقـول في تعيينهـا شـيئًا، وإنمـا نعلـم أنَّ ذلـك لحكمـة اقتضته»[3] ثم يؤكد تفسير المنار على أنَّ هناك هدفًا من القصة، وهو أكبر من تلك التفاصيل التي تُعد من باب علم لا ينفع وجهل لا يضر، فلقد ورد في تفسير المنار أنه «...لعل في خاصية تلك الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلى حال، وربمـا كـان في الأكل منهـا ضـرر، أو كان النهي ابتلاءً وامتحانًـا منـه تعـالى؛ ليظهـر بـه مـا في اسـتعداد

---

[1] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١/ص١٢٤.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢/ص١٠.

[3] تفسير المنار، ج١/ص٢٣٠.

الإنسان من الميل إلى الإشراف على كل شيء واختباره، وإن كان في ذلك معصية سيترتب عليها ضرر»[1].

وأود أن أختم هذا الحديث برأي عبد الكريم الخطيب، والذي أراه أفضل ما قيل في هذا الموضوع، فلقد اتخذ النص القرآني هو الفيل في هذه القضية، فأوضح أنه من خلال استقراء النص القرآني لم يثبت أنه ورد شيء عنها، ثم انتهى إلى رأيه التالي الذي يتسم بالحسن والوضوح، يقول: «هذه الشجرة لم يعرض القرآن لبيان نوعها، ولهذا فهي في – محيط – القرآن غير معروفة النوع ولا الصفة، ومع ذلك فإنَّ المفسرين والقصاص قد ذهبوا في الحديث عن الشجرة ونوعها كل مذهب، مستندين في هذا إلى بعض الروايات المعْزُوَّه إلى بعض الصحابة والتابعين؛ لتكتسب شيئًا من الاحترام والقبول، وهي في حقيقتها إسرائيليات وأساطير وخرافات»[2] ومن المضمون الذي تناوله الخطيب في الكلام السابق، يتضح فيه كذلك ظهور فائدة الطريقة الموضوعية في التفسير، وهي ضرورة التركيز على الجانب المهم في الآية الكريمة دون الدخول في تفاصيل لا جدوى منها.

---

[1] تفسير المنار، ج١/ص٢٣٠-٢٣١.

[2] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج١/ص٦٩-٧٠.

فلقد استقرأ الخطيب النص القرآني كله باحثًا عن نوعية هذه الشجرة فلم يجد، فاستنبط من ذلك عدم ضرورة تحديد نوعها، وبالتالي على المفسرين الالتزام بهذا المنهج القرآني، والذي برزت نتيجته من ذلك الاستقصاء والبحث في النص القرآني بأكمله، وتلك أحد أساليب الموضوعية في التفسير.

وقد لاحظتُ مما سبق اتفاق الشعراوي وجمهرة من المفسرين – الذين عرضت لهم – على ضرورة عدم البحث في نوع الشجرة.

وركز الشعراوي على أنَّ المقصود من الشجرة في القصة إنما هو مجرد التحريم لا ذاتها، ويكون المفهوم من ذلك هو من تكليف الله – تعالى – لآدم وزوجه بنَهْيِه عن قربها، وهذا هو الجوهر الحقيقي من ذكر الشجرة هنا، وهي وضعها في موضوع بيان التكليف الإلهي لهما من «افعل ولا تفعل»، وليس في تحديد نوعها.

(د) إغواء إبليس لآدم وزوجه وصرفهما عن تنفيذ التكليف:

وننتقل مع خواطر الشعراوي إلى مرحلة الإغواء التي تمَّت لآدم وزوجه في الجنة من إبليس، وذلك من خلال تفسيره لقول الله تعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى

حِينٍ)[1] ويستمر الشعراوي مؤكدًا – من خلال شرحه لهذه الآية – أنَّ وجود آدم وزوجه في الجنة – كان تدريبًا عمليًّا على تطبيق التكاليف الإلهية، ولقد لاحظت وجود خط واحد يربط بين خواطر الشعراوي من أولها إلى آخرها في شرحه لقصة آدم وزوجه في الجنة، وهو موضوع تطبيق التكاليف الإلهية، ويدير شرحه للقصة على هذا المحور الأساسي.

ويوضح الشعراوي من خلال خواطره هنا، أنه من تبعات المنهج والتكليف الإلهي الحذر من إغواء الشيطان؛ لذلك يعرض الشعراوي كيف تمَّت عملية الإغواء، وذلك من خلال استحضار الآيات الواردة في ذلك من النص القرآني مكتفيًا بها دون غيرها، وتلك في الحقيقة من أهم فوائد النظرة الموضوعية في التعامل مع النص القرآني، وهو من باب أنَّ القرآن يُفسر بعضه بعضًا، وبالتالي لا داعي لما سيق من إسرائيليات حول عملية الإغواء، والتي توسعت في ذكرها بعض كتب المفسرين، وكثر منها منقول من التوراة كما سأعرض لنماذج من ذلك لاحقًا.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٦.»

يقول الشعراوي: «بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه في الجنة وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام، بدأ الشيطان مهمته مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته، والحق سبحانه يقول: (فَأَزَلَّهُمَا[1] الشَّيْطَانُ) أي أنَّ الشيطان باشر مهمته، فأوقعهما في الزلة وهي العثرة أو الكبوة»[1]

---

[1] لقد قرئت «فأزلهما ..» «فأزالهما بالإمالة، حمزة» ابن خالويه، مختصر في شواذ القراءات، ج١/ص١٢.

=وتجوز القراءتان على المعنى التالي: (فَأَزَلَّهُمَا) الشيطان أي أكسبهما الزلة والخطيئة، ويصلح أن يكون «فأزلهما» نحاهما، الزجاج، معاني القرآني وإعرابه، ج١/ص١١٠.

ويذكر الطبري في شرح معنى القراءتين أنَّ القراءة الأولى التي بتشديد اللام هي بمعنى «استزلَّهما، من قولك زلَّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه، وأزله غيره: إذا سبب له ما يزل من أجل دينه أو دنياه» والقراءة الثانية بالإمالة هي بمعنى «إزالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه»

ولقد رجَّح الطبري القراءة بالتشديد، وذكر في ذلك أنه «أولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ (فَأَزَلَّهُمَا) لأنَّ الله جل ثناؤه قد أخبر - في الحرف الذي يتلوه - بأنَّ إبليس أخرجهما مما كانا فيه، وذلك هو معنى قوله: (فأزالهما) فلا وجه إذ كان معنى الإزالة معنى التنحية والإخراج...» الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٧٢-٢٧٣.

ورأى الطبري له وجاهته، وذلك للقرب الشديد في المعنى، وأيضًا إن تميز أحدهما عن الآخر، فمن باب أولى القراءة بالأشهر، وذلك لتحقق المعنى فيها أكثر، وكذلك

ثم وضَّحَ الشعراوي كيف أنَّ اللّه – تعالى – أوضح لآدم عداوة إبليس له. يقول الشعراوي: «فقد نصح اللّه – تعالى – آدم زوجه ألا يتبعا الشيطان، وأبلغه أنه عدو لهما في قوله تعالى: (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)[٢] إذن فالعداوة معلنة ومسبقة، ولنفرض أنها غير معلنة، ألم يشهد آدم الموقف الذي عصا فيه إبليس أمر اللّه، ولم يسجد لآدم؟ ألم يعرف مدى تكبر إبليس عليه في قوله: (...أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ...)[٣] وقوله: (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)[٤] كل هذا كان ينبغي أن يُنَبِّه آدم إلى أنَّ إبليس لن يأتي له بخير أبدًا»[٥]

مع توافر القرينة التي ذكرها الطبري، وهي دلالة الآية على أنَّ إبليس أخرجهما من الجنة.

وبالرغم من ذلك فهناك من يجمع بين القراءتين من المفسرين كالطبرسي، يقول: «والأصل في ذلك الزوال، والزلة عن الحق، وأزله الشيطان إذا أزاله عن الحق» الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١/ص١٢٥.

[١] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٩.

[٢] سورة طه، الآية: ١١٧.

[٣] سورة الأعراف، الآية: ١٢.

[٤] سورة الإسراء، الآية: ٦١.

[٥] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٩.

ونلمح في عرض الشعراوي السابق لعداوة إبليس لأبينا آدم – من خلال الاستشهاد على ذلك من النص القرآني – إصرار الشعراوي الواضح بين السطور على بث وإعلاء الحذر من إبليس، في نفس جمهوره، وذلك من خلال عرضه لمواقف إبليس مع أبينا آدم – عليه السلام – حتى وقع في شراك الغواية، فنتج عن ذلك انصرافه عن الامتثال للتكاليف الإلهية، وكذلك أراد الشعراوي أن يُنَبِّه إلى قضية هامة، ألا وهي أنَّ الغواية التي حدثت لآدم وزوجه، سبقها تحذير الله – تعالى – لآدم من عداوة إبليس، هذا مع سابق التجربة التي تعرض لها في امتناع سجوده له. يقول الشعراوي: «والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التي نشأت عن موقف إبليس في رفضه السجود، بل أخبر آدم أنَّ الشيطان عدو له ولزوجه...يقول الحق سبحانه وتعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)[1] من ماذا أخرجهما؟ من العيش الرغيد، واسع النعمة في الجنة، ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب»[2]

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٥.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٦٩.

ويواصل الشعراوي تحذير جمهوره من العدو إبليس، ولكن بطريقة غير مباشرة، وذلك من خلال تحليله لموقف آدم – عليه السلام – وما كان لا بد أن يفعله حيال تلك الغواية، رغم أنَّ ذلك قد حدث في الماضي وانتهى، وانقضى كذلك التعبير بـ «كان لا بُدَّ أن يفعل» ولكن هي الطريقة التي أراد بها الشعراوي كل مكلف في الواقع، ولكن دون مباشرة في التوجيه والوعظ، فنراه يبث بظلال معاني القصة في قلوب جمهوره؛ ليلتمسوا من وقائعها الحذر من عدوهم وعدو أبيهم، بأسلوب يعتمد على إثارة الفكر والوجدان؛ وذلك حتى يتحقق مراد الدعوة إلى الله – تعالى – من خلال قالب القصة، وتعبيراتها الموحية والمربية، وبطريقة تخلو من الوعظ المباشر الذي يتنافى والوسيلة التي يدعو من خلالها الشعراوي، وهي وسائل الإعلام، والتي في أغلب ما تقدم تعتمد على التشويق والإثارة، وعدم المباشرة في التوجيه، ولذا فقد أوصل الشعراوي المستمع لتفسير القرآن الكريم إلى استشعار رسائل الله – تعالى – الموجه له بطريقة جذابة غير مملة، بل ومنشطة للذهن والعقل، وهذا كله في ربط موضوعي بين القديم والحديث في انسيابية، تخلو من التفكك في عرض عناصر الموضوع.

يقول الشعراوي: «...كان يجب على آدم أن ينتبه إلى أنَّ إبليس يعتبره السبب في طرده من رحمة الله، فلا يقبل منه نصيحة، ولا كلامًا، ويحتاط ..منه...»[1]

ثم يوضح الشعراوي من خلال النص القرآني كيف أزل الشيطان آدم وزوجه في الجنة. يقول: «لقد بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا هذا، ولكن ليس في سورة البقرة، وإنما في آية أخرى، فقال تعالى: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)[2] إذن فإبليس قال كاذبًا أنَّ من يأكل من هذه الشجرة يُصبح مَلَكًا، ويصبح خالدًا لا يموت...»[3]

ثم يعرض الشعراوي لعملية الإغواء التي تمثلت في وسوسة إبليس لآدم وزوجه في الجنة، والتي عرض لها بعض المفسرين معتمدين في ذلك على مرويات ضعيفة فلقد كان جُلُّ ما يشغله هو عرض القرآن لعملية وسوسة إبليس حتى يتعظ الجمهور، ولذا فقد علا الصوت الدعوي للشعراوي عند إلقائه الضوء على أهداف

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧٠.

[2] سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧٠.

إبليس من الوسوسة، ثم تفريقه بين وسوسة إبليس ووسوسة النفس، ثم ربطه بين هذا وبين وسوسة إبليس لآدم – عليه السلام – كنموذج قد تجسَّد من خلاله كيف تكون وسوسة إبليس. يقول الشعراوي حول كيفية الوسوسة والغرض منها: «وسوسة[1] الشيطان[2] تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية، والشيطان لا يهمه أية معصية ارتكبت، وإنما يريد عاصيًا على أي وجه»[3]

وبهذا يوضح الشعراوي الفرق بين وسوسة الشيطان ووسوسة النفس، ثم يعود مرةً ثانية إلى الحديث عن وسوسة إبليس لآدم. يقول: «...والنفس عندما توسوس لك بالمعصية، تريد شيئًا بذاته، وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان وسوسة النفس، فالشيطان يريدك عاصيًا بأي ذنب، فإن امتنعت في ناحية أتاك من ناحية أخرى، فقد قال لآدم: (هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ)[4]

---

[1] لقد ذكر الرغاب الأصفهاني أن أصل الوسوسة: «الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس، وهو صوت الحلى والهمس الخفي» الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٦٩.

[2] لقد أورد الزجاج في معنى كلمة الشيطان أنها تعني في اللغة: «الغالي في الكفر، المتبعد فيه من الجن والإنس» الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج١/ص١١٥.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧٠.

[4] سورة طه، الآية: ١٢٠.

ولكن هذه المحاولة لم تُفلح، فقال لهما: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)[1] وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحًا لأكل إبليس من الشجرة، ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم الدين...»[2] ولقد أراد الشعراوي من هذا التوضيح تنبيه جمهوره – بطريقة غير مباشرة – أن يحذروا من تحايل إبليس على بني آدم، حين تطبيقهم التكاليف الإلهية، فهو إن فشل في إغوائهم في أمرٍ ما، سيلجأ إلى غيره؛ حتى يوقعهم في العصيان، فإذا علم المكَلَّف ذلك تجنب قدر المستطاع الوقوع في عصيان التكليف الإلهي.

وقبل المُضيَ قُدُمًا مع خواطر الشعراوي أودُّ أن أوضح أنه قد اعتمد – كما رأينا – على النص القرآني في عرضه لكيفية وسوسة إبليس لآدم وزوجه، والتي نجح بها إبليس في إغوائه عن امتثال التكليف الإلهي، وتُعد هذه الطريقة أحد سمات اللون الموضوعي في التفسير القرآني، وهي من باب أنَّ القرآن يُفسر بعضه بعضًا، بحيث يعتمد على النص القرآني أولًا حول ما ورد فيه عن موضوع بعينه، ثم الاعتماد على الموثوق من الأحاديث والمرويات، وهذا «لإبراز

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧١.

هداية القرآن العظيم – بصورة مباشرة – لترتوي منها الإنسانية جمعاء في هذا العصر، الذي يئن من ابتعاد أهله عن هدي السماء، وإخلادهم إلى الأرض»[1]

وحتى يتحقق هذا المقصد العظيم من تفسير القرآن الكريم، لا بُدَّ أن يُستعان كذلك – في تفسير القصص –بمرويات تتناسب مع العقل الإسلامي المحقق والمدقق، ولذلك نجد أنَّ الشيخ/ شلتوت حينما نقد مناهج المؤولين للقصص القرآني، نقد من ضمنهم «منهج جمهور المفسرين، الذي يقوم على الإفراط في تحكيم الروايات الواردة من طرقٍ مختلفة في فهم القصة القرآنية، فكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدرًا ثانيًا للتشريع، اعتبر هؤلاء الروايات الواردة في القصة مصدرًا ثانيًا للقصة بعد القرآن الكريم»[2]

ويرى الشيخ/ شلتوت أنه إذا صح اتخاذ الأحاديث الواردة في التشريع مصدرًا ثانيًا للأحكام، سواء أكانت مبينة أو مفصلة أو مكملة؛ وذلك لأنَّ العلماء ميزوا صحيحها من ضعيفها، بينما يرى

---

[1] د/ جودة محمد المهدي، قصد السبيل في التفسير الموضوعي لآي التنزيل، ج١/ص٣٧.

[2] الإمام/ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، ص٤٧-٤٨.

أنه «لا يصح ذلك في الروايات القصصية؛ لأنها لم تبحث كما بحثت هذه، فهذا المنهج فيه إفراط وأي إفراط، وذلك يتمثل في كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أممهم»[1] وتلك حقيقة يلمسها الباحث في مجال تفسير القصص القرآني في كتب القدامى من المفسرين إلا قليلًا منهم.

ولقد تجنب الشعراوي اللجوء إلى مثل تلك المرويات في عرض خواطره حول قصة آدم وزوجه في الجنة، وعلى وجه الخصوص أثناء حديثه عن عملية إغواء آدم، واعتمد على ما ورد عن ذلك في النص القرآني فحسب، بينما اعتمد العديد من المفسرين في تناولهم لقضية إغواء إبليس لآدم وزوجه على أقوال، لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن تعود إلى صحابي أو تابعي، فحينما اطلعت عليها وجدتها تحكي ما ورد عن ذلك في العهد القديم في سفر التكوين، فمثلًا لقد أورد الطبري مرويات كثيرة تحكي كيف تم إغواء إبليس لآدم وزوجه – رغم إنكاره لها عقب نقله إياها – ومنها «حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرازق، قال: أخبرنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب، قال: سمعن وهب بن منبه يقول: فلما

---

[1] محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، ص٤٨.

دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نُهِيَ الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها، فأخذت حواء فأكلت منها، ثم ذهبت بها إلى آدم، فقالت: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها، فأكل منها آدم، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه يا آدم أين أنت؟»[1] ولقد ذكر الطبري أنه قد روى عن ابن عباس القصة نفسها.

فإذا ما قارنا بين نص المروية السابق وبين ما ورد عن ذلك في سفر التكوين، لوجدنا عظيم تشابه بين القصتين، بل نكاد نقول هي نفس القصة، فلقد ورد في العهد القديم في سفر التكوين التالي: «وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التي علمها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقًا قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجرة الجنة، فنادى الرب الإله آدم،

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٧٣.

وقال له: أين أنت؟»[1] إنها لنفس الكلمات والعبارات والوقفات التي ذكرت في المروية السابقة التي عرضها الطبري في تفسيره.

ولقد بدا لي كذلك خطورة مثل تلك المرويات، لما تحمله من تشويه بعض الحقائق، كالقدح في المرأة، وتشويه صورتها، وإلصاق أصل الخطيئة بها، ففي سفر التكوين نجد التالي: «هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها، فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت، فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت»[2] وأعود إلى المروية السابقة الواردة في تفسير الطبري فقد ورد فيها: «...ثم قال: يا حواء، أنتِ التي غررت عبدي، فإنك لا تحملين حملًا إلا حملته كرهًا، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مرارًا، وقال للحية: أنتِ التي دخل الملعون في جوفك حتى غرَّ عبدي، ملعونة أنتِ لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنتِ عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيتِ أحدًا منهم أخذتِ بعقبه، وحيث لقيكِ شدخ رأسكِ»[3]

---

[1] التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآيات: ١، ٢، ٣، ٦.

[2] التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآيات: ١٢، ١٣.

[3] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٧٣.

أما ما ورد في ذلك في العهد القديم: «فقال الرب الإله للحية: لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنكِ تَسْعِين، وتربًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها، هو يسحقُ رأسكِ وأنتِ تسحقين عقبه، وقال للمرأة: تكثيرًا أُكثرُ أتعاب حبلكِ، بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلكِ يكون اشتياقك، وهو يسود عليكِ»[1]

فالفرق كما رأينا بين ما ورد في العهد القديم وبين المرويات التي أتى بها الطبري هو سلسلة السند التي تسبق القصة.

ولا بُدَّ أن أشير إلا ملاحظة مهمة، وهي أنَّ هناك بعض المفسرين يروون تلك المرويات على أنها حقائق ثابتة، دون إبداء أي رأي حولها، بينما الطبري حين ذكرها كلها أتبعها بأنَّ أولى تلك الآراء: «بالحق عندنا ما كان لكتاب الله موافقًا»[2]

ومن المفسرين الذين يأخذون مثل تلك المرويات كأمر مسلم به البغوي[3]؛ لذا نراه يعرضها في شكل حكاية، دونما ذكر لأي إسناد،

---

[1] التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآيات: ١٤-١٦.

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٢٧٥.

[3] البغوي، معالم التنزيل/ انظر ج١/ص٣٤.

ودونما إشارة إلى ظنيتها وعدم قطعيتها وكذلك من هؤلاء المفسرين الخازن[1]، وبلا ريب أنَّ خضوع مثل تلك التفاسير لمثل تلك المرويات يضعها في دائرة التفسير بالإسرائيليات.

وأنَّ لهذا خطره على القارئ لها أو السامع لها دون خلفية علمية، تقيه شر مزالق تلك المرويات، والتي تكتنف في باطنها ريب كبير، وتشويه لكثير من الحقائق، بل وتنافيها مع ما ورد في القرآن الكريم، ولقد أدرك المفسرون المعاصرون تلك القضية، فأضحت تفاسيرهم خالية من تلك المرويات، ومن هؤلاء المفسرين الشعراوي، وقطب، ومحمد عبده، والغزالي، ود/ محمد البهي، والشيخ/ عبد الكريم الخطيب، والشيخ/ شلتوت، بل وأعلن أغلبهم رفضهم لها، ولهذا اعتمد الشعراوي على ما ورد في القرآن حول عملية الإغواء فقط.

ونعود بعد هذا التحليل إلى خواطر الشعراوي حول وقوع آدم في الزلة بسبب غواية إبليس له، ونلحظ استمرار الشعراوي في مواصلة استثارة الجمهور من خلال طريقته في معالجة عناصر الموضوع الذي يتناوله بالشرح، فنراه يطرح سؤالًا، ثم يقود بالرد

---

[1] الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، انظر ج١/ص٤٣.

عليه من خلال النص القرآني، وقبل مواصلة عرض خواطره أود أن أشير إلى أنَّ فحوى السؤال الذي طرحه الشعراوي وهو «ما الذي أسقط آدم في المعصية؟»[1] وفي إجابته عليه ردٌّ على ما ورد في المرويات التي ساقها الطبري وغيره من المفسرين، والتي تُحَمِّل زوجة آدم أنها سبب وقوعه في عصيان التكليف الإلهي؛ لأنها هي التي عصت التكليف أولًا بأكلها من الشجرة، ثم تبعها آدم في ذلك، وقد لاحظت أنَّ هذا منقول عن التوراة، وهذا يتنافى وصريح النص القرآني في عرضه لهذه القضية.

وبهذا وغيره تظهر فائدة النظرة الموضوعية في التفسير القرآني، دون الخضوع لمثل تلك المرويات التي تطمث الحقائق وتزيفها.

فالشعراوي من خلال استقراءه للنص القرآني - حول هذه المسألة - وجد أنَّ سبب عصيان آدم - عليه السلام - للتكليف مَرَدَّه طبيعته الإنسانية، وهي «الغفلة والنسيان» وليست زوجته، ودَلَّ على ذلك منطوق النص القرآني الذي ألحق بدء الوقوع في عصيان التكليف بآدم عليه السلام؛ ولذلك رد الشعراوي على سؤاله الذي طرحه:

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧١.

«ما الذي أسقط آدم في المعصية؟ إنها الغفلة والنسيان، والحق سبحانه وتعالى يقول: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)[1] وهل النسيان معصية حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)[2] نعم النسيان كل معصية في الأمم السابقة؛ لذلك يقول النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، فنسى وعصى، تؤدي معنى واحد...»[3]

(هـ) هبوط آدم وزوجه إيذان ببدء مهمتهما على الأرض:

وتأتي المرحلة الأخيرة في القصة وهي الهبوط، فيأتينا الشعراوي بالآية الواردة في سورة الأعراف مع الآية الواردة هنا في سورة البقرة من قوله تعالى: (...اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[4]

يقول الشعراوي: «وقوله تعالى: (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[5] هذا الهبوط هو

---

[1] سورة طه، الآية: ١١٥.

[2] سورة طه، الآية: ١٢١.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧١.

[4] سورة البقرة، الآية: ٣٦.

[5] سورة الأعراف، الآية: ٤٢.

بداية نزول الإنسان إلى الأرض ليباشر مهمته في الدنيا، وما دام الحق سبحانه وتعالى قال: (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) فهي إذن حياة موقوتة على قدر وقتها، وعلى قدر حجمها»[1]

وما انتهى إليه الشعراوي في كلامه السابق يدلنا على أنَّ نزول آدم وزوجه إلى الأرض لم يكن إذلالًا، وإنما ليباشرا مهمتهما التي خلقهما الله -تعالي- لها، يقول الشعراوي : «وهكذا بعد معصية آدم هبط هو وحواء من الجنة؛ ليمارسا حياتهما على الأرض، وقوله تعالى: (اهْبِطُوا) معناه أنَّ آدم وحواء وإبليس هبطوا إلى الأرض بعد أن تمت التجربة الإيمانية»[2]

لقد هبط آدم وزوجه ليبدآ مهمتها على الأرض، ولذا فهذا الهبوط «لا يعني أي فساد أخلاقي، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس، وهو نوع من اليقظة في حلم الطبيعة أحدثها خفقة من الشعور بأنَّ للإنسان صلة عِلِّيَّة شخصية بوجوده»[3]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧١-٢٧٢.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧٣.

[3] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص٩٩.

وما كانت هذه المعصية باب شر فتح على آدم وبنيه، بل هي تنبيه له على ما وهبه الله – تعالى – من قدرة نفسه على الاختيار، وامتلاكها الإرادة والتنفيذ، لذا يؤكد محمد إقبال على: «أنَّ القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سُجِنَت فيه إنسانية شريرة العنصر؛ بسبب ارتكابها خطيئة أصلية، فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار...»[1]

لذا فالمُكَلَّف لديه قوة يمتلكها هي الإرادة والاختيار، فإذا ما اتصلت بالتكاليف الإلهية خاضت كل الابتلاءات سالمة منها، وكذلك بالإرادة لديه قوة على إغواءات المادة والشيطان «فالإنسان مع الشيطان ليس مغلوبًا على أمره، وإنما هو مخدوع كبير أو مُسْتَغْفَل غرير»[2]

ومما يؤكد أنَّ هذا الهبوط لا يعني سقوطًا، إنما هو النتيجة الطبيعية بعد انتهاء التجربة التي تعرَّض لها آدم وزوجه في الجنة، يقول د/ محمد البهي: إنَّ هذه التجربة التي خاضها آدم وزوجه هي تجربة خاضها العقل الإنساني في اختبار مدى قوته في الرقي نحو السمو الإنساني، وذلك باتباع التكليف الإلهي، وتجنب السقوط إلى

---

[1] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص٩٩.

[2] محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص١١٢.

المتع المادية التي تصرفه عن الامتثال للتكليف الإلهي، ولذا «فقد وُضِعَ أمام الإغراء المادي وجهًا لوجه، وهو المنع من متعة معينة، والمتعة المادية إذا كان من شأنها أن تغري فيزداد إغراؤها عند تحريمها والحيلولة دونها، وهنا وُضِعَ الإنسان في صراع مستمر مع المادية واتجاهها، أو مع الشيطان وإغرائه، فكانت الحياة الأرضية له المجال لهذا الصراع»[1]

وهؤلاء الذين استشهدت بأقوالهم حول هذه المسألة من أرباب المدرسة الحديثة في التفسير انتهوا إلى ما انتهى إليه الشعراوي، من أن هذا الهبوط لا يعني إذلالًا أو شقاءً، بينما هو بداية المرحلة المقدرة له أزلًا، وهي إعمار الأرض.

غير أنَّ كل واحد من هؤلاء المفسرين لقصة آدم وزوجه في الجنة تناولها في إطار مرجعيته الثقافية التي غُذِّي بها، وكذلك في إطار ما تفجره من مضامين خاصة بموضوعات تشغل أذهانهم، فتتضافر المرجعية الثقافية - لدى كل مفسر - مع القضايا التي يسعى إلى طرحها وعلاجها، فتُنتج موضوعًا ذا ملامح وسمات خاصة، بل وتعكس من خلالها شخصية المفسر بلا شك بجميع هذه السمات.

---

[1] د. محمد البهي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، سورة الأعراف، ص١٩.

فمثلًا محمد البهي في تناوله القصة، كان يشغله موضوع وضع الإنسان مع الصراع المادي أو مع الشيطان وإغرائه؛ ولذا فهو يرى بأنَّ ما مر به آدم في الجنة هو تجربة كان لا بُدَّ منها لإبراز وتجسيد هذا الصراع لآدم، حتى يأمن من تبعاته في مسيرته مع الله – تعالى – فهو لم يختلف مع الشعراوي في أنها تجربة مرَّ بها آدم، لكن انصب تحليله لهذه التجربة على إبراز القصة لوضع الإنسان مع الصراع المادي.

وما ذهب إليه البهي وغيره من المفسرين والمفكرين في تناولهم لهذه القصة، لا يتنافى مع ما أدلى به الشعراوي في موضوعه، فالتناول مختلف، وهذا أمر طبيعي يرجع إلى شخصية كل مفسر، ومع هذا فليس هناك تنافر بين أفكار الشعراوي، وأفكار بعض المفسرين المعاصرين، غير أنَّ الشعراوي كمفسر للقرآن الكريم من خلال وسائل الإعلام تحكمه بلا شك طبيعة هذه الوسيلة؛ ولذلك يهمه بالدرجة الأولى انتخاب موضوعات معينة في إطار خواطره حول القرآن الكريم، ومن خلال تفسيره التحليلي للقرآن الكريم، فيثير تلك الموضوعات ويناقشها، ويرمي بظلالها على الواقع المعاصر للمسلمين في محاولة منها لإبرازها وتوظيفها في الحياة اليومية للجمهور المخاطب؛ ولذا نراه أحيانًا يتلافى بعض

الموضوعات التي لا يتحقق من ورائها أي نفع للعامة؛ ولذا فقد طالعنا من خلال خواطره حول قصة آدم وزوجه في الجنة بموضوع حيوي ومهم، وهو موضوع التجربة على تطبيق التكاليف الإلهية، وهو ما أسماها «التجربة الإيمانية»[1] وهو موضوع يصلح في مجال الدعوة ويسهل على الجمهور فهمه، والاستفادة منه في حياتهم من معالجته.

وبهذه الطريقة المدركة لضرورة توافر الحس الإعلامي الرشيد التي يمتثلها الشعراوي، يستطيع أن يحقق من خلال ذلك القدرة على توجيه نفوس الجماهير، بغرس مضامين صالحة في قلوبهم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ ولذا كان جُلُّ تركيز الشعراوي في قصة آدم وزوجه – عليهما السلام – في الجنة هي إبراز موضوع تطبيق التكاليف الإلهية، وما يتصل بهذا الموضوع من معوقات ومقدمات وآداب لا بُدَّ أن يلتزم بها المُكَلَّف، حتى لا يقع في عصيان التكليف الإلهي.

ومن خلال هذا الموضوع الذي انتخبه الشعراوي نراه يُحلِّق من آن إلى آخر حول موضوع التكاليف الإلهية في الأمة المحمدية، وذلك

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١/ص٢٧٣.

في ربط موضوعي بين تكليف الله – تعالى – لآدم عليه السلام «بافعل ولا تفعل» في الجنة، وتبعات هذا التكليف، وموضوع التكاليف الإلهية لأمة القرآن، وتلك موضوعية فكرية لطالما طالعنا الشعراوي بخواطره في إطارها.

«ملخص موضوع التطبيق العملي للتكاليف الإلهية من خلال قصة آدم وزوجه في الجنة»:

لقد أوضح الشعراوي من خلال تناوله بالشرح لقصة آدم وزوجه لتجربة عملية على تنفيذ التكاليف الإلهية في جنة التجربة كما أسماها، والتي كُلِّف فيها آدم وزوجه بمنهج عملي يحوي افعل ولا تفعل، مع التعرض لغواية إبليس، ثم حدوث الهبوط إلى الأرض لبداية مباشرة مهمتها على الأرض.

ولقد عالج الشعراوي هذا الموضوع من خلال عدة عناصر وهي:

- لقد سعى إلى إثبات أنَّ جنة آدم وزوجه هي جنة تجربة على تنفيذ التكاليف الإلهية، ولهذا أثبت من خلال النص القرآني، واستعماله للفظة الجنة كونها تجربة على مدى تنفيذ التكاليف الإلهية، وليست جنة الخلد، ثم قمت بعرض ما قاله المفسرون والمفكرون المعاصرون حول هذه التجربة التي مرَّ بها آدم وزوجه في الجنة.

- ثم اتجه الشعراوي إلى تفصيل معالم التكليف الإلهي لآدم وزوجه، وهي وجود «أمر ونهي، افعل ولا تفعل» ثم نراه يربط بين معالم تكليف آدم وزوجه في الجنة، وبين معالم التكليف الإلهي لبنيه من بعده.

- ثم انتقل الشعراوي إلى العنصر الذي يليه، وهو معالجته لفقه صيغ التحريم في النص القرآني، وكيف أنَّ بلاغة هذه الصيغ تقي المكلف من الانزلاق في مهاوي عصيان التكليف الإلهي، ولهذا نراه يركز على أنَّ الفهم الحقيقي لبلاغة هذه الصيغ القرآنية، له تأثير فعال في موضوع تطبيق التكاليف الإلهية، واستدل على ذلك باستحضار شاهد من النص القرآني وتفصيله وهو صيغة تحريم القرآن الكريم للخمر.

- ثم تناول العنصر الذي يليه وهو «نوع الشجرة المحرمة» وأورد أنَّ السعي لتحديد نوع هذه الشجرة، ليس هو الهدف من القصة، وإنما المقصود منها «هو إبراز التحريم؛ لأنَّ منهج الله – تعالى – يحلل أشياء ويحرم أشياء» فالشجرة مثلت قضية التحريم في كونها تكليف من الله – تعالى – لهما، وهي كذلك رمز لكل محرم على الأرض، بينما انخرط العديد من المفسرين في عرض الروايات التي تحدد نوع

هذه الشجرة مع تسجيل اعتراضهم على أنَّ الله – تعالى – أبهمها، فليس في طلب معرفة نوعها نفع.

- ثم عرض الشعراوي لعملية الإغواء التي تعرض لها آدم وزوجه في الجنة، وأشار إلى أنه من تبعات التكاليف الحذر من إغواء إبليس؛ ولذا نراه قد شرح لنا كيف تمت عملية الإغواء من خلال النص القرآني، ثم ربط الشعراوي بينها وبين ما يتعرض له المكلفون من إغواء إبليس لصرفهم عن تنفيذ التكليف الإلهي. (بينما اشتغل المفسرون بعرض ما قالته التوراة في ذلك دون ضابط، ولهذا كان تناول الشعراوي لها من خلال النص القرآني خير رد على ذلك).
- ثم انتهى إلى أنَّ هبوط آدم وزوجه، ليس عقابًا لهما إنما هو إيذان ببدء مهمتها على الأرض بعد تعرضهما للتجربة العملية على تطبيق التكاليف الإلهية في الجنة.
- ولقد تجلَّى الجانب الوعظي والإرشادي للشعراوي حين معالجته لكافة العناصر السابقة، وقد أشرت إلى هذا في تحليلي للموضوع المتناول.

●●●